الحلقة (٣٢)

وحديثنا موصول عن ما كنت أتكلم عنه في الحلقة الماضية قول المؤلف رحمه الله رحمة واسعة "**ومن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه**" وقد بينت في الحلقة الماضية ما يقع في هذه الأيام من أصحاب التفجيرات من الإرهابيين، إذ وقعوا في أكثر بدع الخوارج بل تعدوا هذا المصطلح فأصبحوا كالقرامطة.

والشبهة التي في مسألة الصفات نفيها وتشبيهها، **وشبهة النفي أردأ من شبهة التشبيه**، فإن شبهة النفي رد وتكذيب لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وشبهة التشبيه غلو ومجاوزة للحد فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، **وتشبيه الله بخلقه كفر، فإن الله تعالى يقول {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} ونفي الصفات كفر، فإن الله تعالى يقول {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}** وهذا أحد نوعي التشبيه، فإن التشبيه نوعان:

١. تشبيه الخالق بالمخلوق ٢.تشبيه المخلوق بالخالق.

تشبيه الخالق بالمخلوق وهذا الذي يتعب أهل الكلام في رده وإبطاله، وأهله في الناس أقل من النوع الثاني الذين هم أهل **تشبيه المخلوق بالخالق**، كعباد المسيح وعزير والشمس والقمر والأصنام والملائكة والنار والماء والعجل والقبور والجن، وغير ذلك مما يعبد من دون الله سبحانه وتعالى، **وهؤلاء هم الذين أرسلت إليهم الرسل**، يدعونهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، **ووقوع التشبيه الأول أقل من وقوع الثاني.**

قول المؤلف رحمه الله "**فإن ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوحدانية، منعوت بنعوت الفردانية، ليس في معناه أحد من البرية**" يشير الشيخ رحمه الله إلى أن تنزيه الرب تعالى هو وصفه كما وصف نفسه نفيا وإثباتا، وكلام الشيخ مأخوذ هنا من معنى صورة الإخلاص فقوله "**موصوف بصفات الوحدانية**" مأخوذ من قول الله عز وجل {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} وقوله "**منعوت بنعوت الفردانية**" مأخوذ من قول الله عز وجل {**اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ**}،

وقوله "**ليس في معناه أحد من البرية**" من قوله {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}، وهو أيضا مؤكد لما تقدم من إثبات الصفات ونفي التشبيه، والوصف والنعت مترادفان، وقيل متقاربان، **فالوصف: للذات، والنعت: للفعل**، وكذلك الوحدانية والفردانية، فقيل في الفرق بينهما **أن الوحدانية: للذات، والفردانية: للصفات**، فهو تعالى متوحد بذاته متفرد بصفاته، وهذا المعنى حق ولم ينازع فيه أحد، ولكن في اللفظ نوع تكرير، وللشيخ رحمه الله نظير هذا التكرير في مواضع من العقيدة، وهو بالخطب والأدعية أشبه منه بالعقائد، والتسجيع بالخطب أليق، قول الله تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} أكمل في التنزيه من قوله "**ليس في معناه أحد من البرية**"، كلام الله {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا} لا يعلوه كلام ولن يأتي أحد بمثله أبدا.

قول المؤلف "**وتعالى عن الحدود والغايات، والأركان والأعضاء والأدوات، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات**" للناس في إطلاق مثل هذه الألفاظ ثلاثة أقوال:

١- النفي: **طائفة تنفي هذه الألفاظ** (الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات) **وتقول: لا يجوز** أن تطلق في حق الله تعالى وتستعمل في حق الله.

٢- الإثبات على الاطلاق.

٣- وطائفة تفصل، وهم أهل الحق فهم متبعون للسلف، فلا يطلقون نفيها ولا إثباتها إلا إذا بُيّن ما أثبت بها فهو ثابت، وما نفي بها فهو منفي، لأن المتأخرين قد صارت هذه الألفاظ في اصطلاحاتهم، فيها إجمال، صار يستعملها أهل الكلام ولا يُدرى ما يريدون منها، لأن فيها إجمالا وإبهاما، كغيرها من الألفاظ الاصطلاحية، فليس كلهم يستعملها في معناها اللغوي، ولهذا كان النفاة ينفون بها حقا وباطلا، ويذكرون عن مثبتيها ما لا يقولون به، وبعض المثبتين لها يُدخل فيها معنى باطلا مخالفاً لقول السلف، ولما دل عليه الكتاب والميزان، ولم يرد نص من الكتاب ولا من السنة بنفيها ولا إثبات هذه الألفاظ]الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات] هذه لم يرد نص من الكتاب ولا من السنة، وليس لنا أن نصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه، ولا وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم نفيا ولا إثباتا، وإنما نحن متبعون لا مبتدعون، فالواجب أن ينظر في هذا الباب، أعني باب الصفات، فما أثبته الله ورسوله نثبته، وما نفاه الله ورسوله نفيناه، والألفاظ التي ورد بها النص يعتصم بها في الإثبات والنفي، فنثبت ما أثبته الله ورسوله من الألفاظ والمعاني، وننفي ما نفته نصوصهما من الألفاظ والمعاني، أما الألفاظ التي لم يرد نفيها أو إثباتها، **وهذا القول الثالث، لا تطلق حتى ينظر في مقصود، قائلها فإن كان معنى صحيحا قبل، لكن ينبغي التعبير عنه بألفاظ النصوص دون الألفاظ المجملة، إلا عند الحاجة مع قرائن تبين المراد والحاجة،** مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه، إن لم يخاطب بها أو نحو ذلك، يعني يكون من الفلاسفة أو ممن ينحى أو ممن يقدس هذه الألفاظ.

الشيخ رحمه الله أراد الرد بهذا الكلام على المشبهة كداود الجواربي و أمثاله القائلين إن الله جسم وأنه جثة وأعضاء وغير ذلك، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا، فالمعنى الذي أراده الشيخ الطحاوي رحمه الله من النفي الذي ذكره هنا حق، ولكن حدث بعده من أدخل في عموم نفيه حقا وباطلا، فيحتاج إلى بيان ذلك، وهو أن السلف رحمهم الله متفقون على أن البشر لا يعلمون لله حدا، وأنهم لا يحدون شيئا من صفاته.

يقول أبو داود الطيالسي كان سفيان وشعبة وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وشريك وأبوعوانة لا يحدون ولا يشبهون ولا يمثلون، يروون الحديث ولا يقولون كيف، وإذا سئلوا قالوا بالأثر، يعني بما ورد بالآثار.

وسيأتي قوله :"**وقد أعجز عن الإحاطة خلقه**" فعُلم أن مراده أن الله يتعالى عن أن يحيط أحد بحده، لا أن المعنى أنه غير متميز عن خلقه منفصل عنهم مباين لهم، -كما أدخل ذلك بعض من جاء بعد الشيخ رحمه الله- سئل الإمام عبدالله بن المبارك رحمه الله بما نعرف ربنا قال : "بأنه على العرش، بائن من خلقه، قيل بحد قال بحد" انتهى وقد أورد هذا الأثر البيهقي في الأسماء والصفات.

ومعلوم أن الحد يقال على ما ينفصل به الشيء ويتميز به عن غيره، كما في الحدود بين الدول، فالحد يطلق على : **ما ينفصل به الشيء ويتميز به عن غيره،** والله تعالى غير حالٍ في خلقه، ولا قائم بهم، بل هو القيوم القائم بنفسه، المقيم لما سواه، فالحد بهذا المعنى لا يجوز أن يكون فيه منازعة في نفس الأمر أصلا، فإنه ليس وراء نفيه إلا نفي وجود الرب ونفي حقيقته، هذا تحقيق معنى الحد الضابط له.

أما الحد بمعنى العلم والقول وهو أن يحده العباد، فهذا منتف بلا منازعة، لا يستطيعون أن يحدوه سبحانه.

قال أبو قاسم القشيري الأشعري في رسالته القشيرية : "سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي قال سمعت منصور ابن عبدالله يقول سمعت أبا الحسن العنبري قال سمعت سهل بن عبدالله التستري يقول وقد سُئل عن ذات الله فقال: ذات الله موصوفة بالعلم، غير مدركة بالإحاطة، ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا، وهي موجودة بحقائق الإيمان من غير حد ولا إحاطة ولا حلول، وتراه العيون في العقبى -أي في الآخرة- ظاهراً في ملكه وقدرته، قد حجب الخلق عن معرفة كُنهِ ذاته، ودلهم عليه بآياته، فالقلوب تعرفه، والعيون لا تدركه، ينظر إليه المؤمنون بالأبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية.

أما لفظ الأركان والأعضاء والأدوات فيتسلط بها النفاة على نفي بعض الصفات الثابتة بالأدلة القطعية، كاليد والوجه، **يقول أبو حنيفة** رحمه الله في كتاب الفقه الأكبر "له يد ووجه ونفس -يقصد الباري جل وعلا- كما ذكر الله تعالى في القرآن من ذكر اليد والوجه والنفس، فهو له صفة بلا كيف، ولا يقال إن يده قدرته ونعمته لأن فيه إبطال الصفة" انتهى.

وهذا الذي قاله الإمام أبو حنيفة رحمه الله ثابت عنه بالأدلة القاطعة، يقول الله تعالى {**وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ**}، ويقول تعالى {**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**}، ويقول تعالى {**وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**}، ويقول تعالى {**تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ**}، ويقول تعالى {**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**}، ويقول تعالى {**وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي**} ويقول تعالى {**وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ**}،ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة (**لما يأتي الناس آدم فيقولون له خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء**)، ولا يصح تأويل من قال إن المراد باليد القدرة، فإن قوله تعالى {**لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**} لا يصح أن يكون معناه بقدرتي مع تثنية اليد، ولو صح ذلك لقال إبليس: وأنا أيضا خلقتني بقدرتك، فلا فضل لآدم علي بذلك،

فإبليس مع كفره كان أعرف بربه من الجهمية.

-في بعض المرات شياطين الإنس يغلبون شياطين الجن، نسأل الله العافية والسلامة، فهم قد تفوقوا في ضلالهم على إبليس نسأل الله العافية والسلامة- ولا دليل لهم في قوله تعالى {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُون} لأنه تعالى جمع الأيدي لما أضافها إلى ضمير الجمع ليتناسب الجمعان اللفظيان للدلالة على الملك والعظمة، ولم يقل أيديّ مضاف إلى ضمير المفرد، ولا يدينا بتثنية اليد مضافة إلى ضمير الجمع، فلم يكن في قوله {مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا} نظير قوله {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَي}، وقال النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل (**حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**) ولكن لا يقال لهذه الصفات أنها أعضاء أو جوارح أو أدوات أو أركان، لأن الركن جزء الماهية، والله تعالى هو الأحد الصمد لا يتجزء سبحانه وتعالى، والأعضاء فيها معنى التفريق والتعضية –التقسيم إلى أعضاء- تعالى الله عن ذلك، ومن هذا المعنى قوله تعالى {الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِين} والجوارح فيها معنى الاكتساب والانتفاع، وكذلك الأدوات هي الآلات التي ينتفع بها في جلب المنفعة ودفع المضرة، وكل هذه المعاني منتفية عن الله سبحانه وتعالى، ولهذا لم يرد ذكرها في صفات الله تعالى، فالألفاظ الشرعية صحيحة المعاني سالمة من الاحتمالات الفاسدة، فلذلك يجب ألاَ يُعدل عن الألفاظ الشرعية نفيا ولا إثباتا، لئلا يثبت معنى فاسد أو ينفى معنى صحيح، وكل هذه الألفاظ المجملة عرضة للمحق والمبطل.